٥٢٨٢

هدية من دار المعارف
إدارة النشر
غير مخصص للبيع

مكتبتى ٥

البحث عن القمر

وقصص أخرى

بقلم : ربيع الصبروت
رسوم: منى جامع

الطبعة الثانية

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

إعداد الماكيت : أماني والي

ازداد الهواء سخونة، مع تزايد الأنفاس ورائحة السماد، وشعر الجميع باختناق من ارتفاع الحرارة وقلة التهوية، ضاقت الأتان من تكرار الموقف كل ليلة طيلة شهور الصيف، وسكوت الحيوانات المستمر، تكلمت من قبل فقالت الحيوانات: (وماذا نفعل؟، الصبر جميل) قالت: (نفكر ونتعاون! فالصبر غير ما نحن فيه، صاحبنا لا يطعمنا، يسهر مع أصحابه طول الليل وينام حتى الظهر، والناس تأخذنا منه نعمل بدون طعام كافٍ، وهو لا يرى شيئاً).

نظرت الحيوانات إليها، وواصلت ما هي فيه، بعضها يجتر، والبعض الآخر يتثاءب، ولكن «الجحشة» ظلت تفكر وحدها، ولم تجد حلا سوى ما عزمت عليه.

قامت بمحاولة أخيرة، ظلت تدور حول نفسها، ثم تلف بين الحيوانات تشجعها، ولكن الجاموسة شكت في أمرها، هزت رأسها للماعز، وواصلت اجترارها في صمت.

أحست «الجحشة» بالقلق، وبدأت تتكلم بصوت مسموع دون خوف، وقالت بأنها تشعر بالتعاسة، خاصة كلما تذكرت محاولاتها السابقة لتحريض الجاموسة للخروج ليلا، وكيف سخرت منها.. حتى أمها لم توافقها وقالت بأنها مجنونة.

هزت «الجحشة» جسدها بثقة، ومشت إلى الباب.. مدت رأسها بينه وبين الحائط وضغطت، ثم ضغطت - والحيوانات الخائفة تدس رءوسها بين أرجلها، رأت «الجحشة» الحبل لا ينقطع بسهوله، فقبضت عليه بأسنانها وشدت، ثم ضغطت بقوة فانقطع.

خرجت «الأتان» تبحث عن القمر لترى الغيطان والمراعي، وتحلم بطعام وفير، ومياه نظيفة وقريبة بجانب الطريق، وأخذت تستنشق الهواء البارد فرحة، وفجأة سمعت صوتا يناديها.. نظرت في السماء فرأت نجما يسير أمامها، يسبقها بخطوات قليلة، وبعد مسافة توقفت، فتوقف، ووجدت نفسها بالقرب من بئر ماء واسعة، وعميقة.

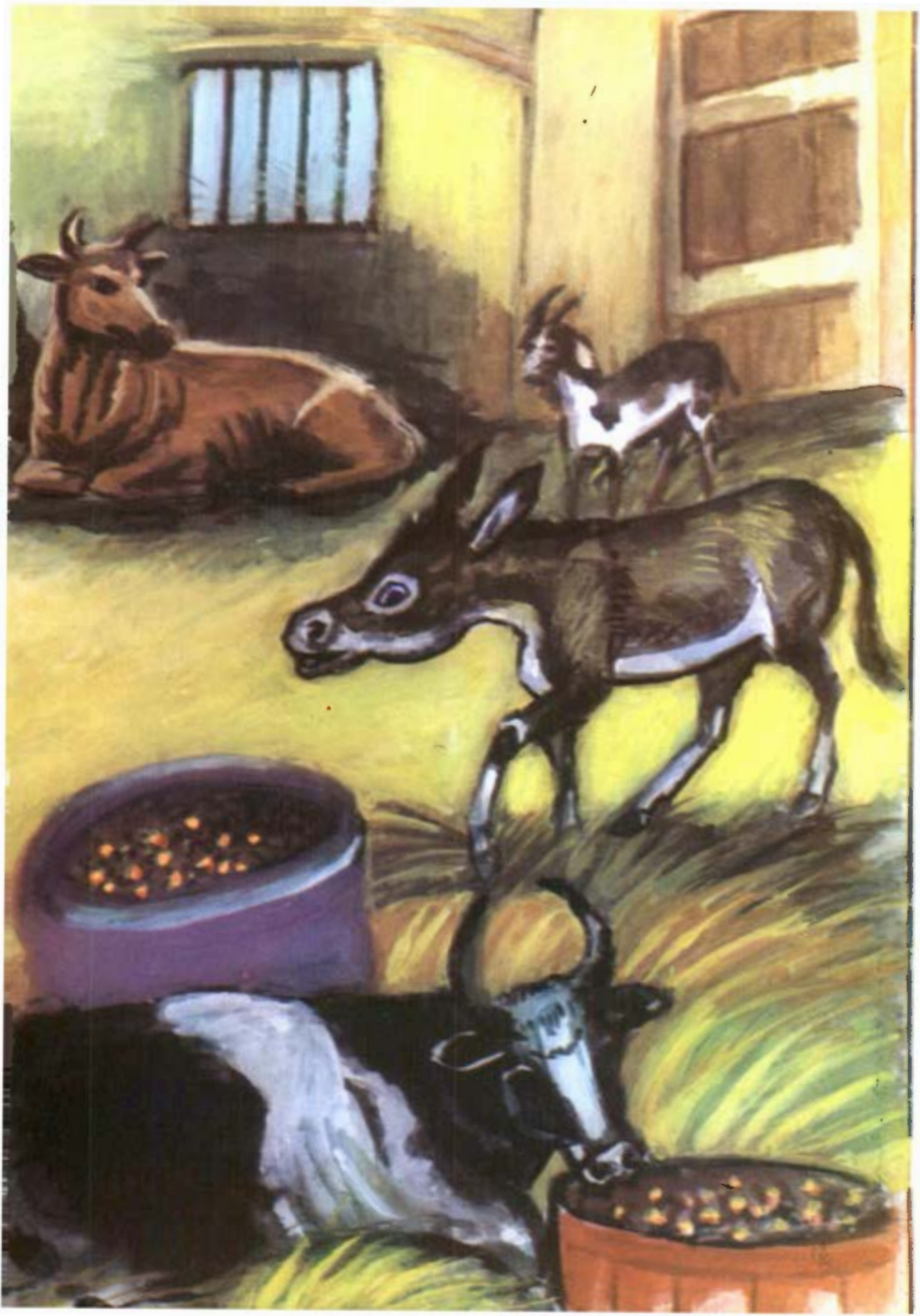

وهناك رأت طيوراً كبيرة فارده أجنحتها وهي ترقص حول البئر، وعلى سطح الماء، وأسماكاً ملونة.. توقف الجميع عن الحركة، وقال كبيرها: «هذه «الجحشة» شجاعة وتحب الحرية مثلنا. سنحتفل بها ونعطيها صداقتنا، وندعوها كل ليلة معنا».

تحيرت «الجحشة» وسألت: «طيور وأسماك بهذا الحجم تظهر وترقص بالليل؟!».

فقال طائر وهو يبتسم: «نحن نأتي في الليل مع الملائكة والنجوم. نعطي الجوائز للمجتهدين والشجعان» وطلبت واحدة منها الرقص.

وقصت «الجحشة» كثيراً، وسمعت أغاني لم تسمعها من قبل. ثم حملها طائر كبير وطار بها في الأعالي. فشاهدت النجوم والكواكب والسحب، ورأت مخلوقات عجيبة. وسمعت حكايات جعلتها تضحك وتتعلم. ولما نزل بها الطائر عند البئر وجدت مخلوقات كثيرة. وأطعمة جميلة تنتظرها، أكلت وشربت، وبعد الحفل، ودّعتها الطيور والأسماك. ووضعت على ظهرها قطعة صوف ملونة هدية لها، ووعدتها الأسماك برحلة في أراضيها تحت الماء.

عادت «الجحشة» إلى الحظيرة، وقفت على كومة عالية، واستندت إلى الحائط، تحكي للحيوانات، وهي راقدة عند قدميها صامتة ومندهشة، وكل ليلة، حينما تكون الحيوانات جائعة وخائفة، تتلفت بمذلة ولهفة ناحية الباب في انتظار ما تأتي به «الجحشة» من طعام زائد وحكايات جميلة، عيونها على بطنها الشبعان، وقطعة الصوف الملونة على ظهرها حلوة برسومات ساحرة مثل حكاياتها الجديدة، وقد اندهشت الحيوانات أكثر حينما أخبرتها أن القمر سينتظرها الليلة القادمة ليريها حقولا جديدة ومراعيَ واسعة.

* * *

الوردة الصفراء

انحنت الوردة البيضاء ودعت ربها: (ربى - امنح ساقى طولا فأرى الحقول والمخلوقات وأسبّح لك..) ثم نامت، وفى الصباح كانت ترى الحقول والفراشات، ورأت الفلاح يأتى بالماء فصاحت بفرح (تعالوا - تعالوا لى وحدى، أنا هنا!، أنا الأطول)، وأخذت تنظر لنفسها بعجب، وتتمايل راقصة بزهو، عرف الغرور طريقه إليها، وفى الظهيرة قالت لأختها الوردة البيضاء القصيرة: (أنا أطول منك، ليس فى الحقل من هى أطول منى!).

ضحكت الوردة البيضاء القصيرة ونامت، وفى الصباح رأت نفسها على سطح الماء، حمراء بلون الدم، شكرت ربها الذى عوضها عن الطول بالجمال، ولكن الوردة البيضاء الطويلة أحست بالغيرة، نهارا وليلا حتى غلبها النعاس، وفى الصباح رأت نفسها على سطح الماء، صفراء بلون الرمل، ولم تملك نفسها، غلبها الغضب والغرور والغيرة، تعاركت مع الوردة الحمراء وتحول حقل الورد الأبيض الهادئ إلى ساحة للعراك، تتمايل الوردة الحمراء أثناء العراك فتلمس وروداً بيضاء بجانبها فتعطيها من لونها، وتندفع الوردة الصفراء فتصطدم بالورود البيضاء حولها، وينتقل اللون الأصفر لها، وورود أخرى أخذت من اللونين، أما الماء فلم يهتم باختلاف الألوان وصعد لكل السيقان، وقال الهواء: أنا أمر على الجميع، وقال الغذاء: وأنا عند الجذور يأخذنى الجائع، ولم تنفع توسلات الوردة الصفراء وهى تحاول أخذ كل شىء لنفسها، وعندما هبت الريح، طوحت الوردة الصفراء الطويلة حتى ثنتها، وصارت قريبة من الأرض.

ابتسمت الوردة الحمراء ومالت تهمس إلى الوردة الصفراء: (أين ذهب طولك؟، لو أنك تذكرت دعاءك، وشكرت من وهبك الطول والماء والحياة، ما جاءك الغرور وما قست عليك الريح).

وشعرت الوردة الصفراء بالخجل، وتخلل اصفرارها الشحوب، سكتت عن الكلام مدة طويلة، ثم انتبهت تردد بهمس (عندك حق - عندك حق).

الكبير و الصغير

لم يكن أيمن يلعب مع أخيه الصغير ياسر.

ومرة رجع أيمن غاضباً، رمى الكتب واللعب على الترابيزة.

دخلت أخته مبتسمة. ولما رأت وجهه وقفت بعيداً، وفجأة طلب أيمن من ياسر الاقتراب.

تعال هنا..

اقترب ياسر خائفاً، وضع الأخ الكبير كفه على كتفه وسأله: لماذا يأكل الكبير الصغير؟ قال ياسر: لأنه كبير. والثانى صغير كشر أيمن وسأله كيف يفلت الصغير من الكبير؟ قال: (يجرى بعيداً - أو يطلع الشجرة بص أيمن فى عينيه وقال: لابد أن تكون أسداً كبيراً حتى لا يأكلك الكبار. ولا تساعد أحداً دون مقابل.

كان أيمن مغروراً، ويظن أنه يعرف كل شيء، ولهذا لم يكن يحب القراءة أبداً، وكلما اختفت الكتب وسألته أمه، مال برأسه، واحمر وجهه، وكانوا يسمعونها تهمس له بأنها لا تحب غضبه المستمر ولا كراهيته للكتب والطيور والحيوانات وعدم مشاركة إخوته اللعب.

كان ياسر يفكر فيما قاله أيمن عن الكبير والصغير، لأنه كان يحدث فى مدرسته، فالولد ممدوح ضرب زميلهم إبراهيم بالأمس مستغلاً صغر جسمه، وقبلها أخذ طعام زملائه، وكان أبطال بعض الأفلام التى يشاهدها يفعلون هذا، وكذلك قرأ فى بعض القصص.

فى قصة (مطاردة) كانت الحدأة تنزل على الكتاكيت الصغيرة وتقتلها، ثم تأخذها إلى عشها، وفى قصص أخرى، تأكل الدول الكبرى دولاً صغرى، وفى الغابة الأسد يأكل، والنمر والفهد، ولكن هل يحدث هذا فى البحار والمحيطات؟.

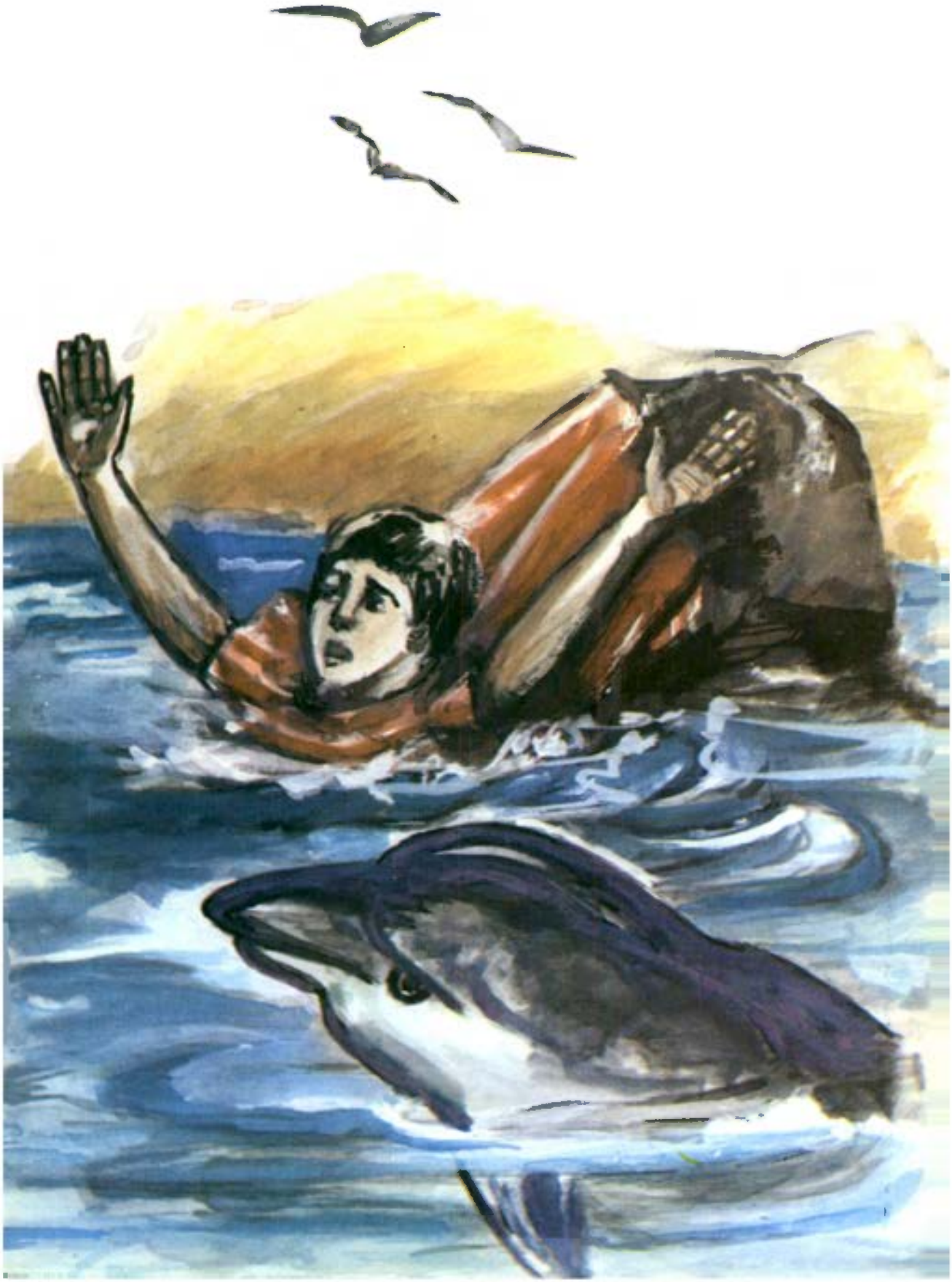

تمدد ياسر بعد الغذاء يتأمل ويقارن، وراح خياله إلى أماكن بعيدة، وكان يهمس لنفسه كأنه انتقل فعلا إليها، يكلم الكائنات وتكلمه (إنها مياه كثيرة جداً، ومخلوقات عجيبة، السمك الكبير يأكل الصغير! والحيتان تأكل الجميع! لكن ما هذا؟ غابات هنا تحت الماء؟ وأسماك ملونة؟ وثعابين، وزهور، إنها ترقص وتغني!).

وذهب ياسر إلى البحر، انشغل بالألوان الجميلة الثابتة على الصخور والمتمايلة على النباتات والمتحركة على الأسماك، كأنها موسيقى حلوة، كل آلة تعزف مع زميلاتها بانسجام في التوقيت المناسب، مر الوقت بسرعة وهو يتأمل بفرح، وحينما وقف ليعود إلى بيته، تزحلق من أعلى الصخرة التي كان يجلس عليها، وتعلق ثوبه بحجر كبير، ظل يتأرجح يضرب الماء بيديه وساقيه، وكلما نظر لأسفل نحو القاع، ارتعش خائفاً من الأعماق البعيدة، تمر الأسماك بجانبه فيتوقع الأسماك المفترسة آتية خلفها، وفجأة شاهد إحداها، كتم صرخته حتى لا يلفت انتباهها، ولكنها كانت تعرف مكانه، ورأى الرأس المسحوب يشق الماء ناحيته، أغمض عينيه وانتظر لحظات وهو يحس بالجسد الناعم يلتصق به، ولكنه لم يشعر كما توقع بأسنان تنغرس في صدره أو في بطنه، بل كان يرتفع لأعلى، ولما نظر كان الدولفين قد خلص ثوبه وحمله إلى الشاطئ، وأخذ يقفز بسعادة، ثم اختفى في الماء، فلم يصدق ياسر نفسه (لم يأكل الكبير الصغير؟!).

قام ياسر وجرى إلى أخيه وقال: (في كل مكان يأكل الكبير الصغير، ولكننا لو فعلنا كما فعل الدولفين معي فلن يجد الكبير صغيراً يأكله!).

ابتسم الأب الذي كان يستمع، وطبطب عليه وقال: (ونرى من يقدم المساعدة دون مقابل، إنها جميلة، احكها لزملائك في المدرسة).

ورد ياسر: (نعم، حتى لا يضرب الولد ممدوح زميلنا إبراهيم، ولا تأكل الدول الكبرى دولاً صغرى، وهكذا تعلم الولد الكبير المغرور من أخيه الصغير، كيف يحب القراءة والاطلاع، ويشارك إخوته، فأصبح من فوره يبحث عن الكتب، يقرؤها ويحافظ عليها، ويساعد الآخرين دون مقابل..

* * *

قصة الكنز

عقب شرب الشاى، نهضت الأم متحاملة من ألم الساقين والمفاصل الذى طال كثيراً، وتوجهت إلى المطبخ لإعداد وجبة العشاء، كان الوقت صيفاً، وانقضى من الإجازة نصفها، وخلاله ذهبت الأسرة إلى المتحف المصرى وأهرامات الجيزة وسقارة، وبناء على رغبة الأبناء، زاروا حديقة الحيوان، ومنذ أسبوعين فقط عادوا من الغردقة وشرم الشيخ وسيناء

اقترح أحمد أن ينزلوا إلى الحديقة، يقلمون الأشجار ويروونها، وينظفون الممرات، قالت منى: (فكرة جميلة)، ولكن فؤاد الذى لم يكن يشاركهم دائما فى ألعابهم، قطب وجهه ونهض متوجها إلى المطبخ، فأتى بطبق من الحلوى، وعاد إلى حيث كان يجلس، وكان جسمه الضخم يزداد بطريقة لافتة للنظر، خاصة وأنه لا يمارس الرياضة، ويلتهم كل الأطعمة التى يجدها، ولهذا كان زملاؤه فى المدرسة يضحكون منه كثيرا، إذ بدت ساقاه ضعيفتان للغاية ولا تتحملان جسمه المترهل.

نزل أحمد ومنى، ومعهما مقص التقليم والدلو والجاروف، كانت الأشجار عالية، فوقفا يتأملان الأفرع الشاهقة، ويفكران فى كيفية الصعود إليها، طلب أحمد من أخته إحضار الشاكوش والمسامير، وأخذا معا فى جلب الأفرع الكبيرة الجافة والمقطوعة من العام الماضى، وبدءا صنع سلم خشبى سويا له ست درجات، ثم أوقفاه وأسندا حافته على الشجرة، وحالما صعد أحمد، ناولته منى المقص.

بعد ساعة واحدة، انتهيا من تقليم كل الأشجار، عدا شجرة التين البنغالى، وهى الشجرة الوحيدة المتبقية من شجر الجد، وعمرها من عمر البيت، وبعد أن ثبتا السلم بجانبها، تذكرت منى أنها ليست من الشجر المعروف لديهم، وهكذا نزل أحمد انتظارا لعودة الأب، وأخذا فى رفع السلم لحمله بعيدا بجانب الحائط.

كان رجلا السلم قد انغرستا قليلا فى الأرض، ولهذا كان ثقيلا جدا، وعندما حاولا مرة أخرى، سمعا صوت رنين خافت فأمالاه، ورفع كل منهما السلم من

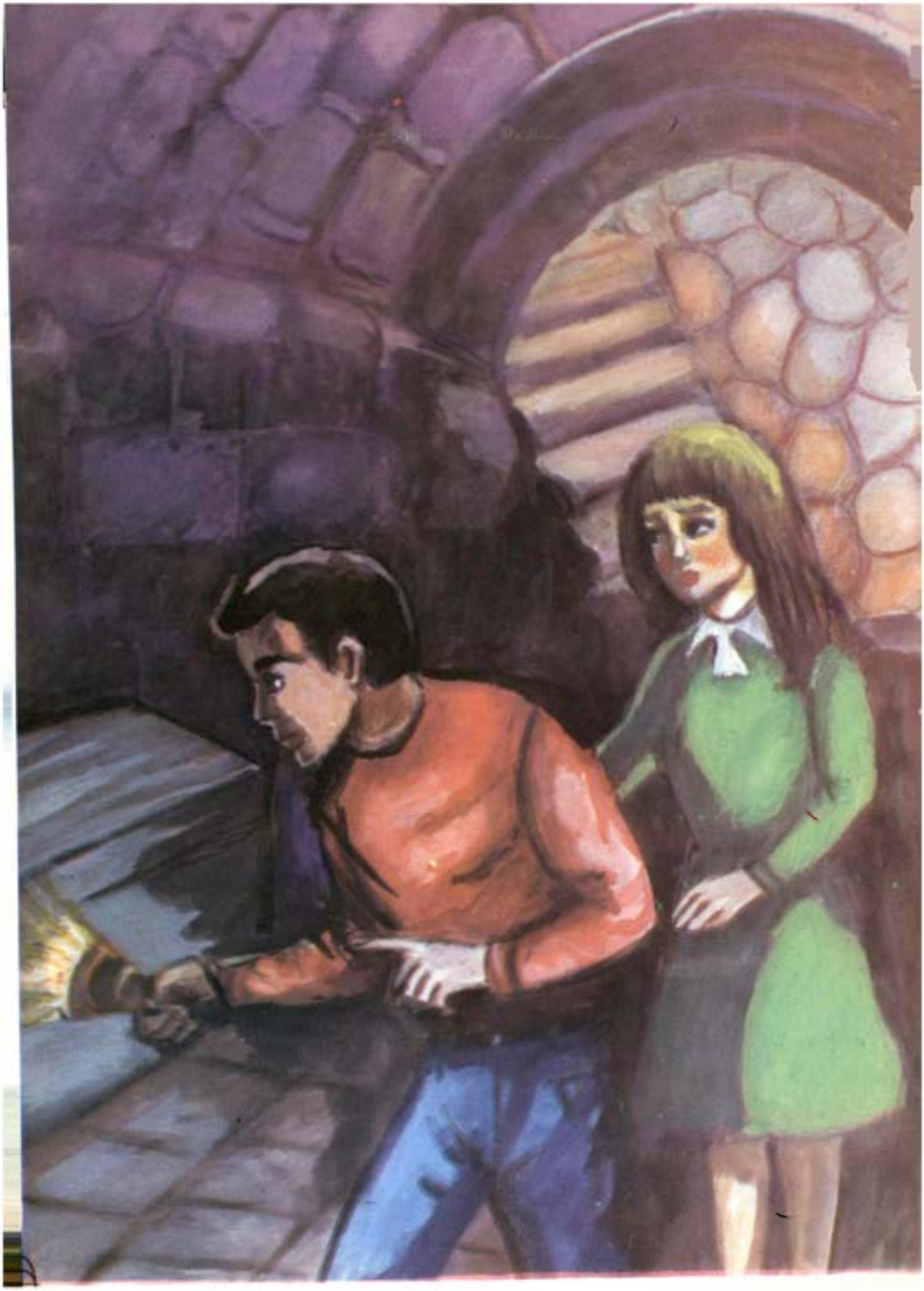

ناحية، وعادا إلى مكان الرنين يتفحصان الحفرتين الصغيرتين. قال أحمد لأخته: رجل السلم بها مسمار. وما سمعناه هو احتكاك المسمار بجسم صلد مثل الحديد. وفعلا اكتشفا غطاء من الحديد. أزالا عنه التراب. وأبصرا بصعوبة درجات حجرية صغيرة وحلزونية. تدور مع دوران الفتحة العميقة. ترددت منى خائفة. ولكن أحمد شجعها. وحثها لمساعدته. ودار بذهنه ما كان يسمعه من حكايات عن المغامرات. واكتشاف الكنوز والآثار. (ولكن جدى لم يكن ثريا ليترك كنزا)!. قال لنفسه. ورغم هذا طلب من أخته إحضار الكشاف اليدوى. ولما جاءت به لم يجدا حجارة بطارية. كانت منى قد انبهرت بفكرة اكتشاف السر ومعرفة المخبأ أسفل حديقتهم. وتحمست أكثر من كلام أحمد وتشجيعه لها. ولهذا فكرت فى كيفية التغلب على مشكلة البطارية، قالت: (نشترى من مصروفنا. خاصة أننا لا نذهب الآن إلى المدرسة). خرجت واشترت الحجارة. ولما عادت لم تجد أحمد مكانه. وكادت تصرخ حينما سمعت صوته أسفل منها.

كان الليل قد أتى، وسكنت الحركة. ونزل أحمد. وعندما سمع أخته تنادى بصوت خفيض وخائف. نادى عليها. ونزلت خلفه ممسكة بالكشاف.

كان قد وصل إلى الدرجة الأخيرة. وخطا خطوة واحدة. ثم تراجع خائفا فاصطدم بأخته. أخذ منها الكشاف وصوبه باتجاه الكتلة السوداء الساكنة هناك. ثم تقدم نحوها وأخته خلفه ممسكة به. توقفا. وأمسكت منى الكشاف وأخذ أحمد فى إزالة التراب الكثيف. أزاح التراب من فوق الجسم المستطيل برفق. ووجد أسفله كيسا كبيرا من الخيش. سحبه بهدوء فانكشف التكوين الخشبى. وبالشاكوش رفع الغطاء. نظرا داخله. ووجدا لوحا من الإردواز. على وجهه آيات قرآنية. وعلى الوجه الآخر. كتابة مبعثرة كتبت بلهفة فهما منها أن هذا هو قبر جدهم الكبير. وقد خبأ فيه جدهم لأبيهم كتبه وأشياءه الهامة أيام الاحتلال. ومن تحت اللوح أخرجا مجموعة كتب كبيرة تآكلت حوافها [الفتوحات المكية - المواقف والمخاطبات - ألف ليلة وليلة - كليلة ودمنة - الشاهنامة - مقامات الحريرى - نهاية الأرب - سيف ابن ذى يزن

- إحياء علوم الدين - ألحان للذكرى - ظمأ البحر - علوم الطب - أسرار الفلك..] وبجانبها وجدا نايا، وآلة توقيت، وأوانى فخارية صغيرة، كروية وأسطوانية، بها بقايا أعشاب مخلوطة ببعضها، وكذلك سجادة ومسبحة.

كانا قد شعرا بالجوع. وكان الليل يمتد، وأحسا بوحشة غريبة وبظمأ شديد فأخذا بعض الكتب والأعشاب وسارا قليلا، وفجأة شهقت منى مذعورة وهما يواجهان شبحا ضخما. كانت شجرة ضخمة تشبه شجرة التين البنغالى، ولكن أوراقها كبيرة، ثمارها جافة، تأملا بدهشة وهما يقلبان بغية قراءة الكتابة المحفورة عليها، بعد خطوتين كانت الأرض مبلولة، وأحجار متماسكة فى دائرة حول نبع ماء صغير. وعلى الحواف زهور صغيرة ملونة وطحالب نبتت فى جسم الحجارة، والفتحة الضيقة تتسع لأسفل، وبها ماتزال مياه لا يكشف وجودها سوى بعض الحشرات التى تقفز على سطحها.

قفزا معا إلى الجهة الأخرى، وسارا فى ممر على جانبيه رسومات محفورة فى صخور عملاقة، حيوانات وطيور وحشرات، رجال ونساء وخيول وعربات، محاريث وأطفال وأسلحة، وألفيا نفسيهما على الدرجة الأولى لسلم آخر فصعدا حتى لامس السقف رأس أحمد. وتحسس الحجارة ثم دفع واحدا بكلتا يديه لأعلى، وخرجا إلى السطح أمام الباب الثانى للبيت من جهة الجنوب. وقفا صامتين يتأملان حجارة البيت القوى العتيق. وسمعا فجأة صوت أخيهما فؤاد محشرجا فانطلقا إليه.

كان فؤاد قد نام بعد أكل كثير. وحينما استيقظ، نزل إلى الحديقة يبحث عنهما فسقط فى الفتحة الأولى التى هبطا منها. وانحشر جسمه السمين وظل يصرخ حتى أخرجاه بصعوبة، وعادوا مهرولين إلى الداخل. وبينما جلس فؤاد يتألم، قدم أحمد ومنى لأمهما الأعشاب التى عثرا عليها، وتهلل وجه الأب الذى عاد، وبرقت عيناه (علاج المفاصل!) وظلت الأم تواظب على شراء أعشاب مماثلة من الصيدلية أسبوعا واحدا وشفيت.

* * *

ريم والوردة

طلعت شمس النهار، شالت «ريم» شنطة كتبها، وفيها كراسة وقلم، كان الطريق مبلولا بالندى، وكنا فى سبتمبر (انتهى ربيع الأول، ومر يومان من ربيع الآخر).

كان الحلم الجميل يطير، وهى تحاول إمساكه والاحتفاظ به، ففيه نزلت عصافير ملونة تحط على مركب بشراع أبيض فى مياه زرقاء، وخيول بيض تصهل بالموسيقى، ولعب جديدة كانت قد وعدتها بها أمها، ووردة عالية لا تطولها يدها.

كانت تنقل رجلها فى أولى خطواتها إلى المدرسة بمفردها، وغناء أمها قبل رؤية الحلم الجميل يرف مثل طراوة صدرها.

يا للاَّتِنَامْ

ريمَا يا للاَّتِنامْ،

تِصْحَى الصبح بَدْرى تَاخُدِ الشنطة وتِجْرى،

ع المدرسة قوام،

تِقْرَا وتكتب بابا،

تقرا وتكتب ماما،

تبقى شاطرة كمان،

يا للاَّتِنَامْ.

والأيادى الشغالة مشَمِّرَة أكمامها، ونسمة خفيفة، وعيال الشارع خارجين من الحارات، كل جماعة متشابكة الأيادى، وهى وحدها تمْشِى، تتأرجح الحقيبة على ظهرها، ويداها لا تلامسان شيئاً فى الفراغ، وشعرت بالبرد وهى تنظر للأولاد يضحكون ويتقدمون للأمام بنشاط، بحثت عن حلمها فلم تذكر منه شيئاً، وغمرها صمت وإحساس بالخوف والوحدة، ورغم أنها كانت دائما

تجلس وتلعب وحدها. إلا أنها لم تشعر بمعنى الوحدة إلا الآن. فى الطريق، وفى طابور الصباح، وفى الحصة الأولى، وكانت مغتاظة من الوردة البعيدة التى لم تنلها، وحينما دخلت مدرسة الموسيقى فى الحصة الثانية، وقفوا جميعا إلا هى. ضحك الأولاد فارتبكت ووقفت مثلهم. ودخل عم عبد الرازق الفراش يحمل آلة كبيرة وضعها على الترابيزة كما طلبت المدرسة، واختارت بعض الأولاد والبنات يرددون خلفها النشيد الجديد.

وتبادل الجميع تعلم العزف على البيانو، وسمعت ريم من المدرسة بأن كل عمل جميل ينجح بالتعاون (هذا الغناء الذى أعجبكم لابد له من مغن وعازف، ومجموعة تردد كما سمعتم) وتذكرت ريم كيف كانت تجلس بمفردها تلعب، وترفض مشاركة أولاد عمها، وترقبت بشغف جرس الفسحة.

وفى حصة الألعاب، وقفوا طابورين. ثم توزعوا إلى مربعات، اقترب كل ضلعين متجاورين من قلب الدائرة فكونوا وردة، وقالت المدرسة:

- من يستطيع عمل هذه الوردة بمفرده؟.

أسرعت ريم وقالت: أنا.

والتفتت حولها فتبينت عجزها عن تحقيق ما أرادت، احمر وجهها وفهمت تماما - الآن فقط، اقتربت وردة حلمها.

وحينما عادت إلى البيت، نادت أولاد عمها، وأتت بلعبها، وضعتها أمامهم، وأخذت تحكى عن الدرس الأول، بعد نظرة خجل قصيرة.

* * *

القطة نوسة

فى يوم حار، رجعت من عملى متعبا، كنت أسكن وحدى، ومعى قطتى الجميلة (نوسة)، وعصافير ملونة فى قفص من السلك، كانت (نوسة) دائما نظيفة، علمتها أشياء كثيرة، وبدأت تفهم وتسمع الكلام.

دخلت المطبخ فوجدت الأطباق محطمة، وهى واقفة على الترابيزة تنظر بغضب، لم تكن خلف الباب ككل يوم، ولم تأت جريا كما كانت تفعل، قلت: (لابد أنها جائعة!)، وضعت لها الأكل فلم تأكل، تركتها، وبدأت أجهز طعامى، وأفكر فى سبب غضبها، فأنا أطعمها أحلى طعام، وأجعلها تستحم معى، أمشط شعرها وأغنى لها!.

أنهيت إعداد الأكل، وبدأت أنقله إلى «السفرة»، حملت طبقين وخرجت إلى الصالة، فسمعت صوت طبق يقع محطما فى المطبخ، وضعت ما معى وعدت مسرعا، كانت تقف مكان الطبق وتنظر جهة القطع المرمية على الأرض، ظننت فى البداية أنه سقط دون قصد منها، ولكن غضبها المستمر جعلنى أفكر مرة أخرى.

تركت الطبق الأخير مكانه، واستدرت جهة السفرة، ثم التفت فجأة ورأيتها واقفة بعناد تدفع الطبق ناحية الأرض، غضبت منها وجئت بالمقشة الصغيرة لأضربها ولكنها لم تبتعد، شبت على رجليها الخلفيتين، وماءت بعنف وهى تحرك رقبتها يمينا ويسارا، ولأول مرة أرى الحزام الجلد الذى ربطتها به فى حلقة المطبخ، وكنت قد نسيته، ولكنها أبدا لم تنس، كل يوم طوال الشهور الماضية تحاول الخروج، حتى جاءت فرصتها هذه الليلة.

كان الشتاء باردا، وماء المطر ينزل بسرعة وقوة، فتحت الباب وسمعت صوتها العالى، وأظافرها تخربش الخشب، أسرعت إليها وفككت رباطها فانفلتت من جانبى وخرجت من الباب الموارب، وقفت على السلم أناديها، وهى وقفت على الدرجة الأولى، وحولها ثلاث قطط كانت تفتش فى القمامة

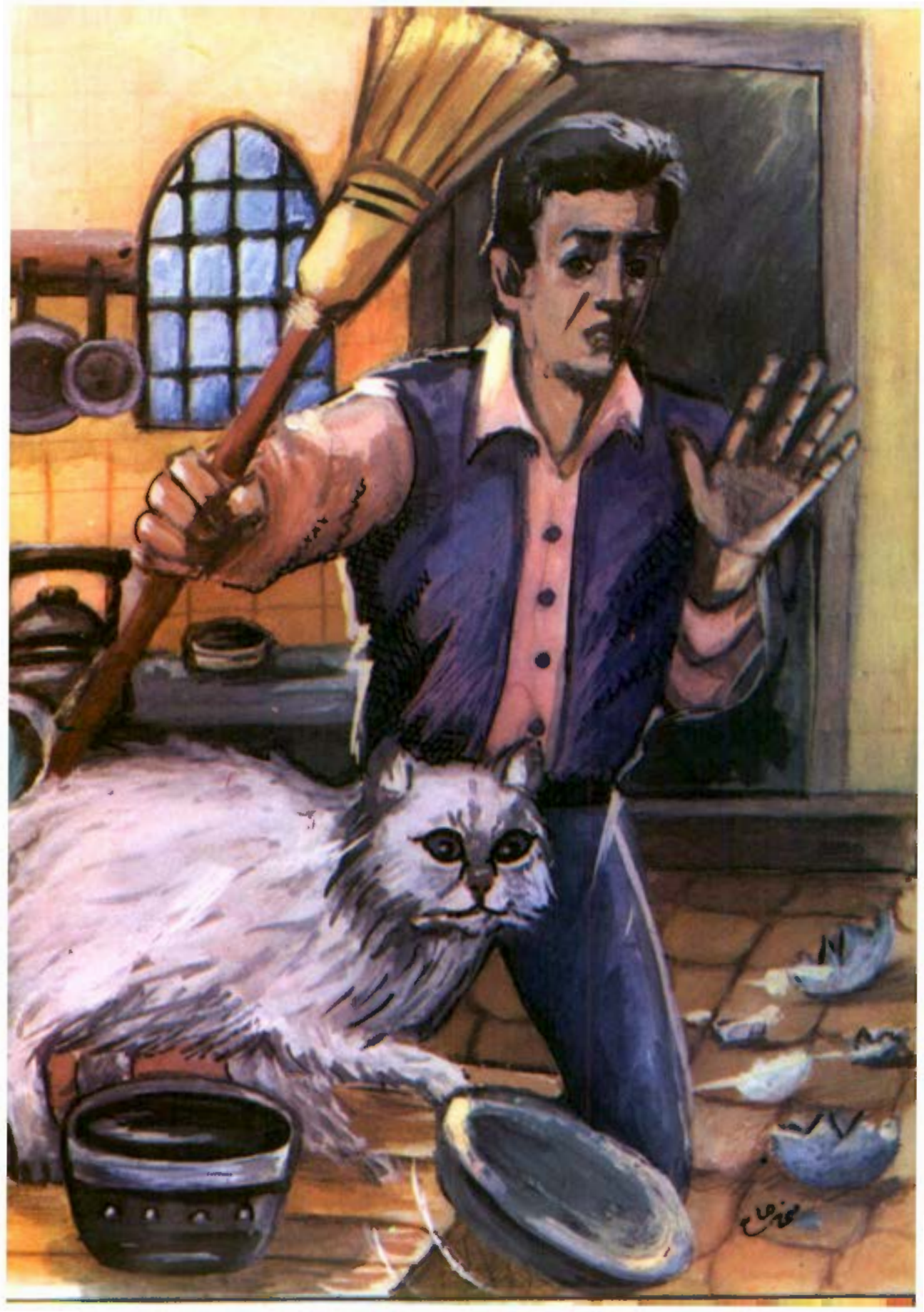

عن طعام، عدت إلى الشقة، وأحضرت طعامها وضعته فى طبق وحملته إليها، ولكنها نظرت نحوى واستدارت تدفع رفيقاتها إلى الخارج وتخرج، صعدت حزينا أفكر، وبعد لحظات قمت إلى القفص وفتحته، فتحت الأبواب والشبابيك فطارت العصافير، ودخلت الشمس لأول مرة بعد المطر إلى الحجرات، وأحسست براحة وأنا أتنفس هواء جديدا، وقررت أن أعلق صورة (نوسة) فى الصالة بعد تجديد الإطار ليستوعب شمسا صغيرة فى الأعالى، وهى تنظر نحوها وتسير أينما سارت.

* * *

حديقة الحرية

مثل كل يوم، حمل الولد إبراهيم بقايا الطعام إلى الأرض الفضاء. كانت مساحة واسعة بين البيوت يلعب عليها الأطفال والصبية، اقترب ولم يلق الكيس كما يفعل دائما، ظل واقفا وجسمه يهتز من الخوف، كبرت الديدان التى كان يراها حول القمامة، صارت بطول الثعابين، وكثرت الفئران والقطط والكلاب، وأعداد لا حصر لها من الحشرات ملأت الساحة، لم يكن أحد من الأطفال هناك، ولا الصبية الذين يلعبون الكرة، حتى الطيور الجميلة التى كانت تمرح بين الأطفال اختفت، الحمام والبط والأوز، هربت جميعها من القطط والكلاب الضالة والحشرات القاتلة، ومع اشتداد حرارة الصيف، ازدادت رائحة العفن، وانتشرت حول البيوت، تصعد من القمامة فى دوامات مختلطة الألوان، حمراء وزرقاء وسوداء، كأنها النار تخرج من فوهة بركان، أغلق الناس الأبواب والشبابيك، واضطرت عائلات كثيرة إلى مغادرة بيوتها.

انتشرت الأمراض بين الأطفال، حتى الولد إبراهيم لم يعد يخرج إلى الشارع، مرض هو الآخر وحمله والده إلى الطبيب فحجزه للعلاج، واستدعى بعض الشباب زملاءهم أصدقاء الكشافة، جاءوا بعربات الحى ورجال النظافة، ظلوا يعملون ليلا ونهارا لمدة خمسة أسابيع.

بعدها تحولت الساحة إلى حديقة زرعت بها النباتات والأشجار، ووضعت صناديق قمامة، وعلقت لوحات إرشادية وأخرى تحذيرية، وساهم الشباب والفتيات فى عمليات التجميل.

فرح الناس بالحديقة، وتسابقوا فى تزويدها بالطيور وقطع الخشب لإقامة الكراسى والمظلات، وجلب بعضهم أنواعا نادرة من الورود، ثم لوحة كبيرة ملونة علقوها أعلى المدخل الرئيسى كتبوا عليها (حديقة الحرية). سألهم الولد إبراهيم مندهشا، وسمع أن الحرية هى المحافظة على ما يخص الجميع وليس أن تفعل ما تريد ضدهم.

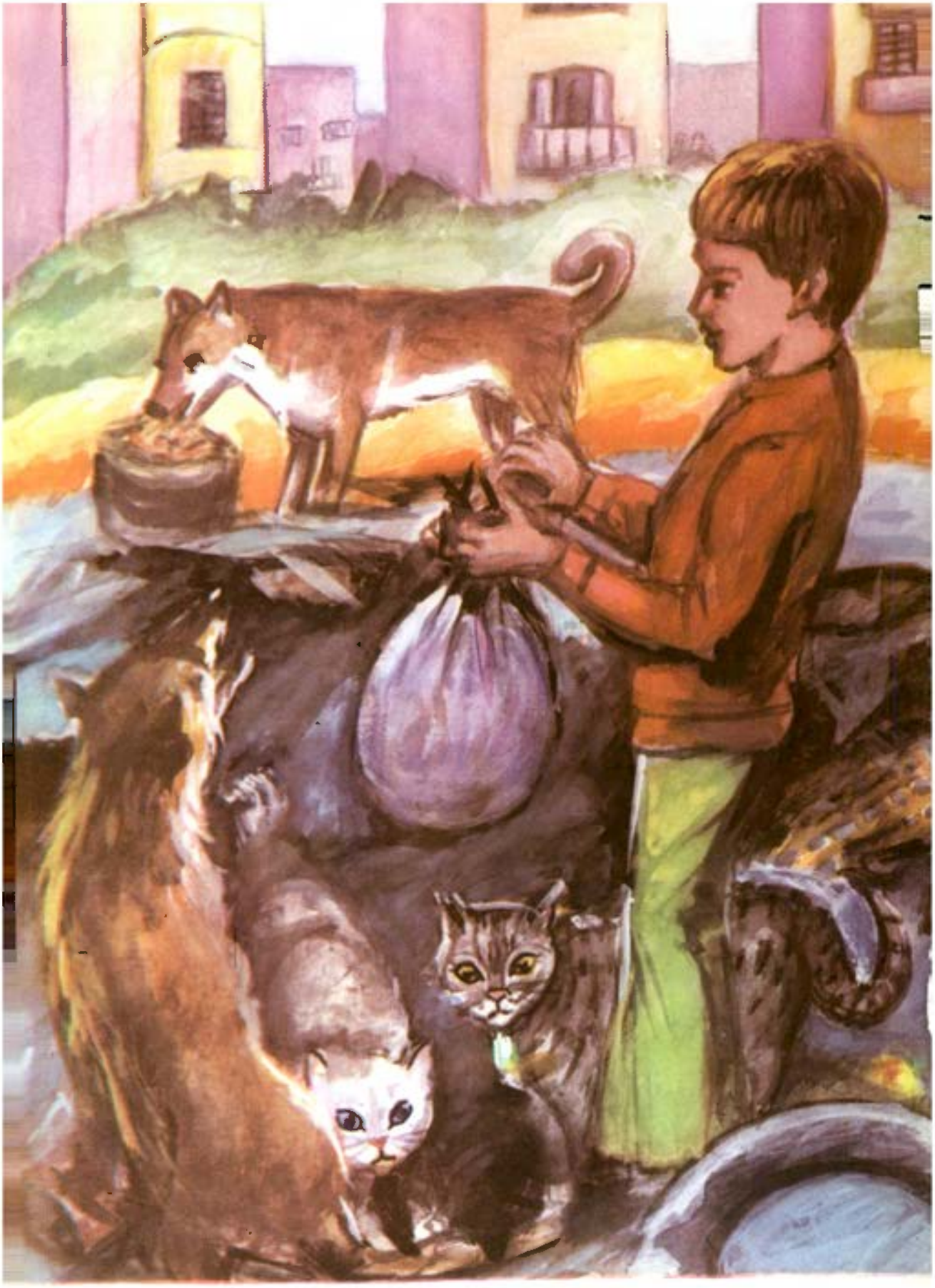

وأقيمت بحيرة صغيرة داخل الحديقة، اشتروا لها الأسماك، وظهرت الطيور الجميلة من العصافير والحمام، حينما شاهدها الولد إبراهيم وهو في فترة النقاهة لم يصدق نفسه. وكاد يزعق حينما رأى السمك يطل من الماء، ويقفز راقصا ينادى البط، والبط يحكى له حكايته. وكيف طردته القطط والكلاب. فيعلمها السمك العوم، والحمام يطير ويحط فى أمان، وفيما بعد، كلما سمع إبراهيم (الأرض الخراب) أو (أرض الدود) أو (أرض الثعابين) إشارة إلى الساحة القديمة سارع بتصحيح الاسم. وبحماس شديد يردد (اسمها حديقة الحرية!، حديقة...).

* * *

جنة الصحراء

فجأة انحرفت العربة عن الطريق، كان بعضنا نائما، والبعض الآخر يتأمل فى الفضاء الواسع وجمال السكون والشموخ، ارتفع الزعيق والضجيج، ونحن نندفع بعيدا عن مقاعدنا ونصطدم بالمقاعد الأخرى، والعربة تتمايل بقوة، ترتفع وتنخفض بارتجاج مخيف.

شملنا الرعب، وحدقت عيوننا المفزوعة، فلم تر فى الزجاج الذى تحطم سوى رمال.

تحول الصراخ باسم السائق إلى توسل كى ينتبه ويتحكم فى السرعة: (أوقفها يا محمد!! - يمين يا محمد!! - شمال)، ولكن الكثبان الرملية التى واجهتنا أخيرا متجاورة، هى التى أجبرت السيارة على التوقف.

كان مشرف الرحلة قد طلب منا بالأمس النوم مبكرا، كنا فى ردهة الفندق، وأكد أمامنا على محمد سائق الأتوبيس، ولكنه بعد صعود المشرف إلى حجرته، خرج، وصباح اليوم قال أحد الموظفين للمشرف قبل مغادرتنا: (رجع محمد فى الثانية صباحا).

اندفعنا نحوه وهو منكفئ على عجلة القيادة، وعاتبه المشرف (قلت لك لا تسهر يا محمد!)، ولكن لا فائدة من العتاب أو اللوم الآن، ونزلنا من السيارة نتطلع إلى الرمال المحيطة، والأرض المنبسطة حتى نهاية النظر، كنا جوعى بسبب عدم تناولنا الفطور، وقد غادرنا الفندق منذ ثلاث ساعات، وبدأت حرارة الشمس العفية تلسعنا، وبدأ الإحساس بالعطش، سخنت الرمال وسطح الأتوبيس واجسامنا، وسار بعضنا ناحية طريق الأسفلت الوحيد، والذى انحرف عنه الأتوبيس وباعد بيننا وبينه، لكنهم اكتشفوا أن الأتوبيس قد سار بنا كثيرا، وأنهم لا يستطيعون السير فى الرمال إلى هناك، حيث تنغرس الأقدام. والصهد اللافح يلسع من يلامسها، وخيم علينا إحساس الخوف والقلق ونحن نتكوم مرة أخرى داخل الأتوبيس هربا من الشمس، ولكن المشرف

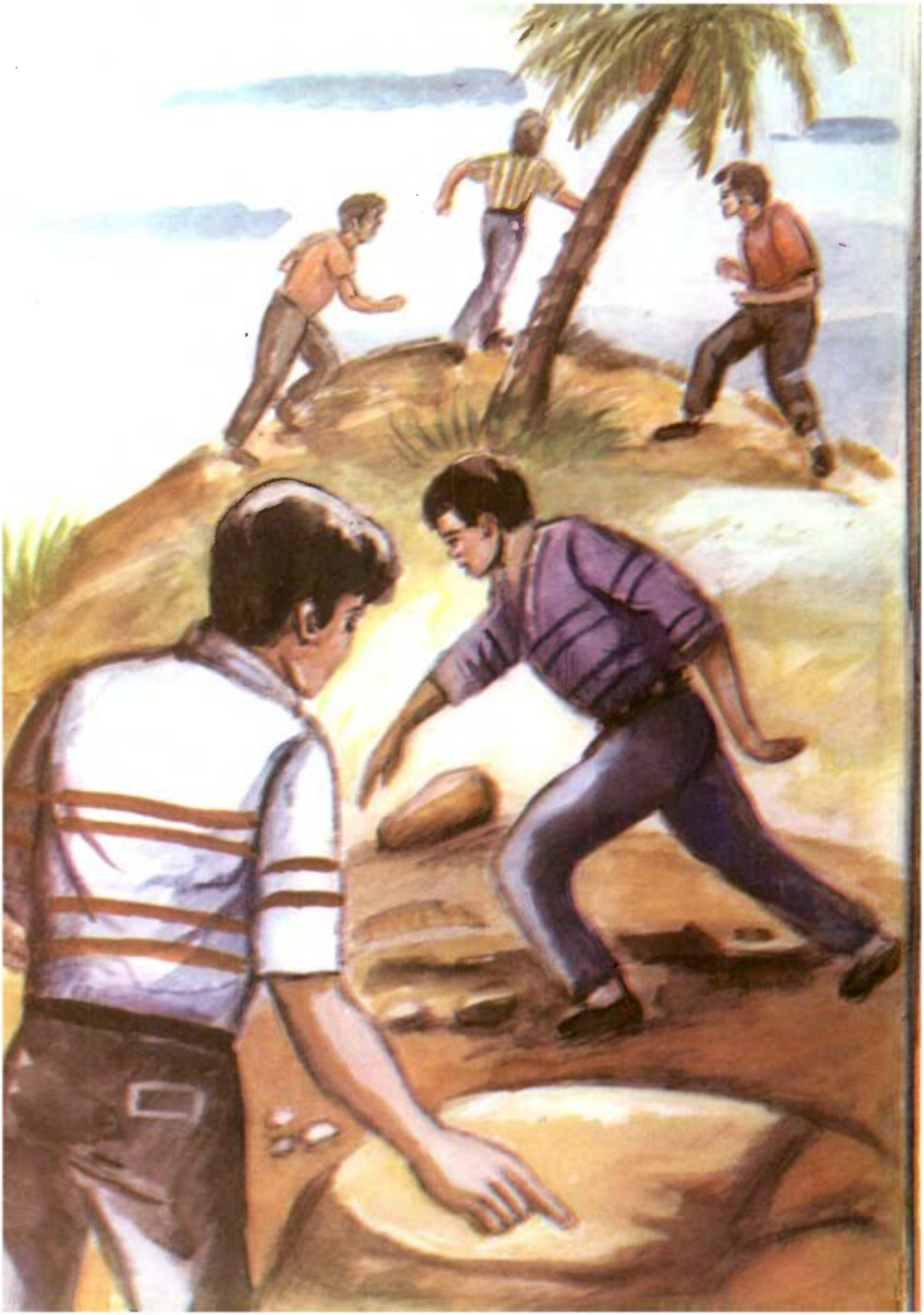

طلب منا النزول ومحاولة دفع الأتوبيس للخلف فنزلنا، وأخذ كل منا مكانه على جانبى الأتوبيس، وعند المقدمة ودفعنا بقوة مرة ومرة، ومرات كثيرة، لم يتزحزح الأتوبيس، وغمرنا العرق واشتد العطش فعدنا إلى الداخل متعبين، ولم يصعد المشرف، أخذ معه ثلاثة زملاء وساروا يبحثون عن مياه، أو مساعدة كى نعود إلى الطريق، وكلما مر الوقت، سيطر القلق علينا، واقترح أحدنا تكوين جماعة تقتفى أثر المجموعة الأولى، وأن تستخدم صفارة الكرة إذا رأتها، ولكننا قبل التحرك، شاهدناهم مقبلين، وعلى وجوههم فرح حقيقى، وحينما اقتربوا تقدمنا إليهم نسأل بلهفة، قال المشرف مشيرا بيده (هناك، خلف التلال توجد نخلة).

هرولنا مسرعين، صعدنا الربوة التى صادفتنا، وشاهدناها هناك، أسرعت خطانا باتجاهها، كانت شامخة فى وقفتها وسط الخلاء الرحب، والبلح الأحمر فى الأعالى يلمع تحت وهج الشمس.

أخذ المشرف أحزمتنا وربطها، ثم لفها حول النخلة، وجعل بقايا السعف سلما صعد عليه وهو يحرك الحزام لأعلى.

كانت دهشتنا كبيرة بعد توزيع البلح وأكله، فقد شبعنا جميعا وخف الظمأ، ومن فرحتنا بدأنا مرة أخرى ندفع الأتوبيس، والمشرف يشرح لنا القيم الغذائية فى البلح، وتاريخ النخلة الحافل ودورها مع الأنبياء والرسل والزهاد، وفجأة تحرك الأتوبيس بعد دفعة جماعية قوية، وامتدت الأيادى من الشبابيك ناحية النخلة ونحن نغادر المكان كأنها إنسان حقيقى منحنا المساعدة، وأعطانا بكرم وسخاء، فتسابقنا نشكره دون اتفاق سابق بيننا، وحينما صعدنا إلى الطريق، طلبنا من المشرف إعادة تاريخ النخلة، واستمعنا بشغف كأنه يحكى الأساطير الجميلة، وكان بعضنا يؤكد: (إنها جنة الصحراء - إنها..)، وأضيف لفوائد السفر السبع المعروفة، درس جديد عن النخلة عشناه وحفظناه، فكل النخلة فوائد، البلح والسعف والجذع والنوى، وقد ذكرت فى القرآن جملة وتفصيلا، فمرة ذكرت (.. النخلة) ومرة (جذع)، حتى القطمير!.

* * *

فهرس

البحث عن القمر ٣

الوردة الصفراء ٧

الكبير والصغير ٩

قصة الكنز ١٢

ريم والوردة ١٦

القطة نوسة ١٩

حديقة الحرية ٢٢

جنة الصحراء ٢٥

رقم الإيداع	٢٠٠١/٩٧٥٢
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6161-0

٧/٢٠٠١/٨٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)